دراسات الأدب المعاصر، السنة السادسة، شتاء ۱۳۹۳، العدد الرابع والعشرون: صص۵۹- ۷۳

أثر أنطون سعادة فی تیار الحداثة الشعریة

سیدحسین هاشمی*

تاریخ الوصول: ۹۳/۱/۱۴
تاریخ القبول: ۹۳/۵/۷

الملخص

مع *أنطون سعادة* ازدهر الأدب ذو النزعة السیاسیة الواضحة، فتحوّل من الحماسة الفارغة، ومن النداء الخطابی الوطنی العام، الغامض، إلی رسالة أدبیة ملتزمة تدافع عن قضیة الأمة، قال *أنطون کَرَم*: «انسری فی أدب الحاملین لواءها (قضایا النّضال) روح استقلالی، ظلّت شعلته مستمرّة اللهَب، ینطلق من الحزب السوری القومی بزعامة *أنطون سعادة*»(کرم، ۱۹۸۰م: ۲۷). وکان *أنطون سعادة* مَن شرع یسهم فی الکفاح الأدبی ولاسیمّا فی حزبه أی الحزب السوری القومی، مؤکداً بأنّ النهضة، فی سوریا تستمدّ روحها من مواهب الأمة. وفی زعامته، انخرطوا کثیراً من الشعراء أمثال *أدونیس*، *ویوسف الخال*، *خلیل الحاوی* أی الحداثیون فی حزبه، موالیاً لحرکة الحزب وأهدافه خاصة فی ما یتعلق بالأدب. ومن هذا المنطلق، نعالج أثر *أنطون سعادة* فی ادباء عصره.

الکلمات الدلیلیة: أنطون سعادة، الحداثة، الحزب السوری القومی، المثلث التموزی.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* طالب الدکتورا فی فرع اللغة العربیة وآدابها، الجامعة اللبنانیة، بیروت. hossein-h-1359@yahoo.com

المقدمة

ما أن الحديث عن *أنطون سعادة* مختصر وأود المرور بكل أفكاره، كإشارات وعناوين تدل أكثر منها تحيط فإننى أستعجل نفسى للوصول إلى أثر *أنطون سعادة* فى أدب وأدباء عصره وامتداد هذا الأثر إلى كل الأدب العربى لا الأدب المشرقى فحسب؛ وسواء علم الأدباء فى العالم العربى ذلک أو لم يعلموا فإنهم يعلمون ويدركون تيارات الشعر، خاصة التى انتشرت فى الأدب العربى من خلال تلاميذ مدرسة سعادة الشعراء(*على أحمد سعيد*) واسمه الذى اختار من خلال تأثره بفكر *سعادة*(*أدونيس*)، *يوسف الخال*، *خليل حاوى*، *يوسف أبى شقرا*، *نذير العظمة*، *كمال خير بک* واسمه الذى اختار أيضا من خلال تأثره بفكر *سعادة*(*قدموس*)، *محمد الماغوط*، *فؤاد سليمان* واسمه الذى اختار من خلال تأثره بفكر *سعادة*(*تمّوز*)، *محمد يوسف حمود*، وكذلک ما سمّى بالشعراء (التمّوزيين) ومن يردفهم فى النقد *خالدة سعيد* التى قدمت أهم شاعرين من شعراء قصيدة النثر، ودافعت عن هذا الجنس الشعرى بتقديمها النقدى *لمحمد الماغوط*، *وأنسى الحاج*.

من المفيد أن نتحدث فى كلام مختصر ومفيد عن صاحب العقيدة القومية الإجتماعية ومدرسته الفكرية، هذه المدرسة الفكرية، كما وصفها الشهيد القائد *كمال جنبلاط* فى معرض إستجوابه التاريخى للحكومة اللبنانية حول إستشهاد سعاده عام ١٩٤٩ إذ قال آنذاک: «إن *سعاده* هو رجل عقيدة ومؤسس مدرسة فكرية كبرى وباعث نهضة فى أنحاء الشرق قد يندر لها مثيل».

إهتم *سعادة* بالأدب والقضية الأدبية فى سورية وذلک لأن الأدب يشكل إحدى ركائز النهضة القومية التى أرادها لمجتمعه. وخلال إنشغاله فى هذا الميدان إضطر إلى أن يتناول بالنقد والتحليل أعمال كبار أدباء زمانه وشعرائه، وذلک لما رأى فى أعمالهم من تقليد وفوضى وعدم إبداع ومن أدب ذليل وعقائد مسممة للنفوس لابد من مواجهتها من منطلق المصلحة العامة للمجتمع لأنها تمثل عقلية الإنحطاط والسفول والأنانية.

هذا الأدب الجديد الذى دعا إليه *سعادة* لكى يتحقق النهوض للشعب كله هو أدب الحياة الذى تكمن فيه عوامل التجديد، وتنبع منه رؤى جديدة تسير بنا إلى تحقيق الحياة الجميلة والسامية التى نطمح إليها. وبهدف إنتاج هذا الأدب الجديد خاطب *سعادة* جميع شعراء سورية قائلاً: «تعالوا نرفع لهذه الأمة التى تتخبط فى الظلمات مشعالاً فيه

نور حقیقتنا وأمل إرادتنا وصحة حیاتنا. تعالوا نشید لأمتنا قصوراً من الحب والحکمة والجمال والأمل بمواد تاریخ أمتنا السوریة ومواهبها وفلسفات أساطیرها وتعالیمها المتناولة قضایا الحیاة الإنسانیة الکبری... تعالوا نقیم أدباً صحیحاً له اصول حقیقیة فی نفوسنا وفی تاریخنا. تعالوا نفهم أنفسنا وتاریخنا علی ضوء نظرتنا الأصلیة إلی الحیاة والکون والفن. بهذه الطریقة نوجد أدباً حیاً جدیراً بتقدیر العالم وبالخلود».

بناءً علی ما سبق، نتحدث عن سیرة ذاتیة زعیم *سعادة*، وصولاً إلی أثره العمیق والخالد فی أدباء أثره.

أنطون سعادة

سیرته الذاتیة

ولد *أنطون سعادة*(۱۹۴۹-۱۹۰۴) فی بلدة «الشویر» فی جبل لبنان. کان والده *الدکتور خلیل سعادة* وکانت والدته *نایفة نصیر خنیصر* تلقی علومه الأولی فی مدرسة الفریر فی القاهرة، وبعد وفاة والدته عاد إلی الوطن أی لبنان، انکب علی دراسة اللغات(البرتغالیة، الألمانیة، والروسیة). بعدها اتجهت قراءاته إلی الفلسفة والتأریخ وعلم الاجتماع والسیاسة. ظهرت کتاباته الأولی عندما کان فی الثامنة عشرة ونشر عدة مقالات طالب فیها بإنهاء الاحتلال الفرنسی واستقلال سوریا.

حاول عام ۱۹۲۵م تألیف حزب لتوحید أبناء الجالیّة السوریة فی البرازیل باسم « الشبیبة الفدائیة السوریة»،لکنه لم یلاق نجاحا، و أعاد المحاولة عام(۱۹۲۷) فأسس حزب السوریین الأحرار» الذی توقف نشاطه بعد ثلاث سنوات.

فی تموز ۱۹۳۰م عاد *أنطون سعادة* إلی الوطن من البرازیل وبدأ بإعطاء دروس فی اللغة الألمانیة فی الجامعة الأمیرکیة فی بیروت. وقد حفلت هذه المحاضرات بواکیر فکرة القومی الاجتماعی. أسس فی تشرین الثانی ۱۹۳۸م حزب السوری القومی وکان حزباً سریاً بسبب الظروف الصعبة الناجمة عن الانتداب الفرنسی.

فی عام ۱۹۳۲ أعاد *أنطون سعادة* إصدار مجلة «المجلة» فی بیروت لتساهم النهضة السوریة القومیة الاجتماعیة التی طرحتها، وعلی صفحاتها ظهرت فی المشرق العربی، ولأول مرة، دراسات تحلیلیة لموضوع«الأمة». فی حزیران عام ۱۹۳۵م، وبعد أن أصبح

انتشار الحزب ملموساً فی الأواسط الشبابیة والثقافیة، أقام *سعادة* الاجتماع العام الأول رغم سریة الحزب، وفی هذا الاجتماع ألقی خطاباً مکتوباً، وکان من أهم الوثائق الفکریة فی العقیدة الحزب القومی، ودلیل عمل حرکة النهضة القومیة التی یهدف إلیها الحزب، لکن أصدرت سلطات الانتداب الفرنسی قرارا بسجنه ستة أشهر. خرج من السجن، واعتقلت سلطات الانتداب *سعادة* عدة مرات لأن مشروع *سعادة* أصبح یهدد السیاسة الاستعماریة الفرنسیة بفصل لبنان عن سوریا الکبری. فی عام ١٩٣٨م غادر *سعادة* الوطن تحت الظرف السیاسیّة القاسیة، بعد جلاء القوات الفرنسیة عام ١٩٤٦م حاول العودة إلی لبنان عدة مرات، فی النهایة وصلت طائرة *سعادة* إلی بیروت فأصدر الحکومة اللبنانیة فی أعقاب الاستقبال الکبیر مذکرة توقیف بحقه، وکان فعل الحکومة اللبنانیة مباشراً، لجأ *سعادة* علی إثرها إلی دمشق. استقبله *حسنی الزعیم* وبعد شهر، سلّمه للسلطات اللبنانیّة وفق صفقة یوم ٧ تموز(١٩٤٩ م) فحاکمته وأعدمته فجر یوم ٨ تموز(١٩٤٩م).

آراء أنطون سعادة

قبل أن أحدد معالم الطریق الجدید، فی مقام الأدب، عند *سعادة*، أشیر إلی واقع الأدب، کما رأی إلیه *سعادة*، فی سوریا، ثم أکتشف عن تصوّر *سعادة* للأدب، کما یحب أن یکون، وفاقاً لفلسفة الحزب، ولحرصه علی إنشاء روحیّة موحّدة. لم ینشأ *سعادة* أو الحزب، إلغاء أنواع الفنّ الأدبی، ولم یرد أن یصبّ الأدب فی قالب واحد لکنّه عنی عنایة ممیزة بالأفکار التی یتناولها الأدب و تکون ذات صفة أساسیّة، أو فلسفیّة، عامّة؛ تؤثّر فی نفسیة المجتمع(سعادة، ١٩٦٠م: ٧١). و لما بدأ *السعادة* أنَّ «العصبیة الأندلسیة» لیس لها غرض واضح، أو مذهب أدبی یجمع بین أفرادها، حاول عبر بحثه فی الأدب و مهمّته، أن یبرز معالم الأدب تحتاج إلیه سوریة(المصدر نفسه: ٢٠٤-٢٠٥). فکانت خطوته الأولی، إذن تعیین المشکلات التی یُعانیها الأدب کما یلی:

الف) التعمیم والغموض والتّشویش فی حقیقة الأدب ولاسیمّا الشعر. فالتعمیم یحول ذو معرفة الحقیقة الکبری الأساسیّة، ویبقی الفکر قلقاً ولا یُساعد العقل الفلسفی علی الاطمئنان(سعادة، ١٩٥٥م: ١٣-٢١). لذلک اجتهد سعادة فی نقده، کی یرسم طریقه واضحة للخروج من هذه الحالة(المصدر نفسه: ٣٧).

ب) الاقتباس أو الاکتساب من الآداب الأجنبیة علی ما فیها من مظاهر الانفتاح، لا یمثّلان نفسیّة الشعب السوری مثل «بنت یفتاح» *لسعید عقل* و أثرها «التّغریبی الیهودی»(سعادة، الآثار الکاملة: ۴۴-۴۶).

ج) أن یکون الأدیب أو الشّاعر مرآة الجماعات، أو مرآة عصره(ردّ علی *الرّیحانی* وحسین *هیکل*. فمعنی ذلک، هذا شأن المعلّم، الفیلسوف، الفنّان، القائد الذی یقدر أن یخططّ تاریخاً جدیداً لأمّته، ویضع قواعد عصر جدید لشعبه.

د) سعی الشعراء إلی تصویر الحبّ البربری الذی لم یروّضه التمدّن، ولم تقومه الثقافة، ولم ترتفع به النفس، الحب فی صورة التقبیل، وطلب الأجساد للأجساد. من هنا ثورة *سعادة* علی قصیدة التقلیدیة والغزل المتبذل.

ه) کل تجدید شکلی، لایحمل تجدیداً فی الأساس(فهم جدید للحیاة یرفع الأنفس إلی مستوی أعلی). هو من قبیل اللهو الباطل، والذات الزائفة.

و) کل استعانة بالخرافات أو الأساطیر الخالیة من المغزی الفلسفی.

ی) النّزعة الفردیّة فی الأدب خطر علی النظرة الجدیدة إلی الحیاة والکون والفن. فقد عدّ سعادة التفکیر الذی یجعل الشهرة الشخصیة غایة الفکر والعمل فی الحیاة، أمرا منافیاً لروح المتَّحد وللروحیة القومیّة التی بناها علی شعور حیّ جدید.

هذا هی أهم جوانب الضعف فی أدبنا کما انکشف *لأنطون*، المُفکِّر الملتزم، والزعیم الروحی الذی رأی الرُّوحیة المثالیة فی الفلسفة القومیّة الاجتماعیة. وبناء علی ذلک أسقط *سعادة* ما یتعارض مع موقفه هذا، لیقیم بناء جدیداً رکَّز أسسه، بکلّ صرأة ووضوح، علی مفاهیمه الجدیدة المرتبة بالهویة القومیة، یمکن ایجاز هذه المفاهیم والآراء بالآتی:

أ.ضرورة امتلاک نظرة فلسفیّة تاریخیّة تمنح الأدب عمقاً لابدَّ منه.

ب.طریق القومیة لایقود إلی الانحلال الدّینی ولا إلی مجرّد التفکیر فی هذا الأمر لکنّه یقود حتماً إلی انحلال التعصّب الدّینی وقیام الاعتصاب القومی محلَّه.

ج.أهمیّة العودة إلی أساطیر سوریة وفلسفاتها وثوراتها التی أضاءت العالم.

کان همّ *سعادة*، من خلال بعث الأساطیر، و التأمل فی مضمونها، خلق حالة من الاستمرار بین السوری القدیم والسوری القومی الاجتماعی الجدید. فی سیاق متصل، یقول *منیف موسی*: «لعلَّ أهم ما جاء عند *سعادة* فی الموضوعات الأدبیة مسألة الأساطیر

وأنَّ دعوة *سعادة* إلى استثمار خيرات الأساطيرَ، فكراً وروحاً، كانت عاملاً مهماً فی ظهور ما يسمّی بالشعر التموزی. قال *سعادة*: «أهم الأساطير اليونانية، وأهم قصص اليهود الأساسيّة مأخوذ عن أصول سورية»(سعادة، الآثار الكاملة: ۶۰). و أشار *سعادة*، بقصيدة «طافون» فی سوريا، قبل «إلياذة» *لهوميروس*، وذلک فی رأس شمرا(أوغاريت القديمة). أمّا النماذج الأسطورية التی توقف عليها فهی:

۱.قصة أدونيس: يقول *سعادة*: لها مغزی وعلاقة وثيقة بالحياة. فی هذه الأسطورة، وغيرها من أساطير رأس شمرا، قرب اللاذقية، حقائق رائعة عن عظمة التخيل السوری فی الحياة وقضاياها.

۲.طافون المصطفی: قبل الإلياذة أنشأ المؤلّفون الفينيقيون(الكنعانيون). فی أُغاريت، الملاحم فی مغامرات غريبة لبطل أسطوری يدعی(طافون).

۳.إيل: يعنی الإله، أبوالآلهة الكبير حداً يُسميّه ملک السوم أی «ملک السّنة».

۴.بعل: المقام الأكبر والألد لإيل، الطامح فی الملكية المطلقة.

۵.«معط»، و«علين» و«أناة»: "معط" هو رمزالطبيعة المثمرة و "علين" يملک علی الغيث والريح. قتل "معط"، علين. فجفّف الأرض، وأمست السباع تطوف فی المدن. نهضت "عناة" أو"أناة" أخت إله الغيث المقتول، لمحاسبة معط علی ما جنت يداه. تأخذ أناة منجلا لتقتل معط، وتحرق جثثه وتذری بقاياه فی الحقول، فيبعث علين ويعود المطر.

هكذا، دعا *سعادة* إلى الاتصال بهذه الكنوز الرومية الثمينة، وإنَّ أساطير الخصب والنهوض شغلت *سعادة* وجميع الشعراء الذين تأثّروه(ابوفاضل، أنطون سعادة الناقد والأديب المهجری: ۲۵۲).

أثر أنطون سعادة فی نظرة الحداثيين(المثلث التموزی)

أدونيس وسعادة

يعترف *أدونيس*، بعد مرور سبع وثلاثين سنة علی تركه الحزب السوری القومی، بأنه مدين بشعره وأدبه *لأنطون سعادة*، قال *أدونيس*: «إنّ ما يسمّونه أدب الحداثة ليس غريبا عن روح نهضته، وقواعد الحياة التی وضعتها»(مجلّة البناء، العدد۸۶۳: ۱۸).

أهدی *علی أحمد سعید* ملحمته القومیة «لیلة» سنة (۱۹۵م إلی بنات أمّته العاملات لمجد سوریا وعظمتها، ولم یکن علیها لقب *أدونیس*. ثم أهدی مجموعته الأخری «قالت الأرض» سنة ۱۹۵۴م إلی *سعادة*.

ما إن صدرت «لیلة» حتی تبادل *أدونیس* و أصدقاءه رسائل فی هذالصدد وجاء فی رسائل اعتراف صریح بفضل *سعادة* علی الشعراء، وموضوعاتهم، واشتغال حیاتهم بالثقافة، والکتابة، والإبداع. قال *أدونیس*: «إن *سعادة* مثّل آفاقا لامتناهیّة من السموّ والعظمة، وعبّر عن عجزه عن الانطلاق مع هذه الآفاق بدون ید تمسکه بیده لیبدأ الارتقاء. أضاف *أدونیس* أن سعادة رائعة فریدة، وزمن جدید، لم یتفتّح جفن التأریخ علی مثیله من قبل. وقرر أنَّ معرفة سعادة شرط أساسی لکل خلقٍ وإبداعٍ.

إن هذاالردّ، علی إیجازه، کان یتمحور حول نظرة *سعادة*، ومفاهیمه، وروحیة القضیة التی شغلته مدی حیاته.

وقد صرّح *أدونیس* یحیا هذه المفاهیم والأسس، ویعطی أمته والعالم، من ضمنها، وهو ملتزم خط *سعادة* «المعلّم الخالد» کما سمّاه. ولذلک کتب أبحاثه وقصائده فی «الجیل الجدید» وغیرها عن الأساطیر السوریّة من هذه القصائد واحدة تُعنی بالزعیم سعادة تحت عنوان ملحمة سعادة:

یا زعیمی و کلُّ حقّ و خیر و نوراً من الحیاة و نارا

(مجلة الجِیل الجدید، العدد الأوّل: ملحمة سعادة)

وقال عن تمّوز الشّهید:

آمَن الناسُ أن لبنانَ حیٌّ فی شهیدٍ، علی الرِّمالِ، قتیلٍ

(أدونیس، ۱۹۵۴م: ۶۹-۷۷)

الینابیع الأسطوریة والتراث العربی القدیم

رأینا أنَّ *سعادة* شاء النهوض بالنّهج الأسطوری فی الشعّر سعیّاً إلی إعناء روحیّة الأمّة، والاغتناء بها. وهذا ما أقرّ به *أدونیس* فی کتابه «ها أنت أیّها الوقت»، عندما تکلّم علی الاستمرار الحیّ لتراث حضاریّ سومری، بابلی، کنعانی، یرقی إلی خمسة آلاف سنة، ویعود الفضل فی انبعاثه إلی کتاب *سعادة* «الصراع الفکری فی الأدب السوری».

فالنِّتاج الأدونيسی، من «ليلة» إلى «قالت الأرض» إلـى قصـائد أولـى، ومـن بعـد فـی القصائد المنثورية، فی مجلة« الشعر» هو نتاج الموقف من الموت البطوليّ الفـادی. وخيـر صورة نراها فی«قالت الأرض» حيث امتزج دم *سعادة* بدم *أدونيس* ونهـض الرّبيـع تصـويرا لتموز:

وكـأن الحيـاة تُبعـثُ فـی مـوتٍ ... وتُبنـــی أجيالُهـــا فـــی شـــهادة
أينمـــا ســـرتَ نشـــوة، أو دمٌ ... يفـــرحُ، أو تـــأثر يُغنّـــی جهـــاده
قيـل كـونٌ يبنـی فقيـل: بـلادٌ ... جُمِّعـت كلُهـا، فكانـت سـعادة

(أدونيس، ١٩٥٤م: ١٠٣)

وقد استخدمت الأسطورة، وما حولها من رموز، لهذه الغايات: البحـر، الصـليب، إبـراهيم فی «البئر المهجورة» هو الضحيّة، هو الزعيم المقتول، أو المسيح المصلوب. هـذه المعالـة الرمزية هی الأساس، حيث يقول الشاعر:

حياتی لم تعـدّ شـيئاً ... تُری موتی هـو الشـیء

(المصدر نفسه: ٦٥)

يصرخ الشاعر والشاعر هو الزعيم، والـزعيم هـو المسـيح، والمسـيح هـو التمـوز: «أيـن غلبتک يا موت؟!» ويأتی الجواب:

أ عطشانٌ خذِ الصّخرة واضربها
أ فی العتمه؟ دحرجها عن القبر

(المصدر نفسه: ٦٥)

هكذا جعل الخال رموز التوراة، متأثّرا *بسعادة* ويمتزج الحضاریّ بالـدّينی، بالاجتمـاعی، بالاسطوری، بالإنسانی فی شعره، ليجسّد معاناة الجيل لا يحيا ولا يموت. وفی سـياق هـذا التوجّه، قال الضلع الثالث لمثلث التموزی أیّ *الحاوی*: «إنَّ الأساطير المتمثّلة فـی التـراث الشعبی تُعبّر عن نفسية شعبنا وتطورّها خلال التأريخ، أضاف أنَّ الرؤيا هـی التـی تكشـف عمّا يمكن فی تلک الأساطير من معان إنسانية. إنَّ قراءة شعر *حاوی* تُنبئ بمـدی تشـرّبه روحية سعادة ففی قصيدته «أدونيس والمسيح» الّتی كتبها عـام ١٩٥٢م، اتّحـاد عضـویٌ بالينابيع الأصلية التی كانت مصدر نهضة عريقة، ومصدر أفكار الزعيم سعادة:

أدونيسُ يرتمی فی اللّيل

شِلْوًا غالَهُ الوحشُ الجَموحَ
والمسیحُ
ذنبُهَ أنّ الذرّی البیضاءَ فی عینیهِ
یَعیا دونها الفکرُ الکَسیحُ

(الحاوی:۳۳۲)

وفی هذه الحالات، لا یقف حاوی علی حدود المعرفة بل یعانی مأساة کونیة هراع الوحش و*أدونیس*، وروما، و*المسیح*، و*سقراط* و الشر.

ویمکننا القول إنّه لم یسبق«أن ولجت جدلیّة *أدونیس* و*المسیح* فی الشعر بمثل هذا الزّخم والعنف والعضویّة، والنّمو الداخلی». زد أنّ *الحاوی* فی قصیدته «یهوه» نفر من إله الدّماء ومال إلی إله الرحمة، کما هو الحال عند *أدونیس* و*الخال* بناءً علی تعالیم الزعیم *سعادة*، وأفکاره، حیث یقول:

یا إله الخصبِ، یا بعلاً یفضّ
التربة العاقر
یا إلهاً ینفض القبر
یا شمس الحصید
أنت یا تموز، یا شمس الحصید
نجّنا نجّ عروق الأرض
من عقم دهاها ودهانا
أدفئ الموتی الحزانی

(الحاوی، الدیوان: ۹۰-۸۹)

وأما فی ما یتعلق بالتراث، فرأینا أنّ *سعادة* أعجب *بأبی العلاء* و*أبی نواس* و*جبران* وغیرهم، ولئن لم یتوسع فی تسویغ إعجابه، فإنّه لفّت أنظار المتذوقین، فی مدرسته، إلی أهمیة التغییر فی الموقف والرؤیا لدی الشعراء موضوع الإعجاب. فی هذا المقام، دعا *أدونیس* إلی ضرورة حمایة المجدّدین المبتکرین فی مجتمع تطغی علیه نزعة التقلید وبناءً علی فکرة الزعیم، أشار إلی *أبی نواس* الذی رفض أن یکتب بالطریقة التی سبقته،

وسخر منها، ورأى فی تمرّد هذا الشاعر علی عمود الشعر العربی جذوراً للتمرد الحديث. فالتجلّيات الأولی للحداثة تكشّف فی شعر *أبی نواس*.

هكذا بدأ *أبو العلاء* بالنسبة إلی *أدونيس* عالماً وحده، متأثّراً بتعاليم *سعادة*، لا يتميّز عمّن تقدّموه من الشعرا وحسب، بل يتميّز كذالک عن معاصريه حيث يقول: «كان برجاً يرتفع وحيداً عاليّا، فی مفازة البشر، وفی الجهات كلّها يری ويتلألأ»(أدونيس، ۱۹۷۰م: ۶۴).

وأمّا *يوسف الخال* فی هذا السياق، متأثراً بالزعيم *سعادة*، فقال: «ذكر *أبا نواس* إلی جانب *شكسبير* فی كلامه علی التراث الأنسانی والحداثة». وأيضا قال: «فی الشعر كنت أتعلّق بكلّ مَن أجد لديه نفحته جديدة *كأبی نواس*، و*جبران*، وغيرهما».

ولا يقلّ *حاوی* حماسة عن رفيقيه الشّاعرين فی التغنی *بأبی العلاء*، و*جبران*، و*أبی*نواس، *فالمعری* أدرک أن الشاعر قد يدانی بحدسه حدس النبوة. وقد طالما ردّد حاوی علی مسمعی ثلاثة أبيات *لأبی العلاء* كانت نافذة لتفجير همومه:

فؤادک خفاق و برقک خافق ... وأعياک فی الدنيا خليلٌ موافقُ
تخيرّ فإما وحدة مثلُ ميتةٍ ... وإمّا جليسٌ فی الحياةِ مُنافقُ
أردتَ رفيقاً كی ينالک رفقُه ... فدَعْهُ إذا لم تأتِ منه المرافقُ

(حاوی، مع خليل حاوی:۴۲۵)

النظرة الصوفيّة إلی الأرض وأم الوطن

بقی أن نتوقف علی الأرض، وحال العشق لدی المثلث التموزی علی أساس فكرة الزعيم سعادة عندهم. فكما نظر *سعادة* إلی بلاده السّورية نظرة متصّوف عاشق، يحيا بحياتها ويموت بموتها، هكذا وجدنا لدی المتأثرين به حالة وطنية عبّرت عن ذاتها.

رأی *سعادة* أنَّ الكنعانيين الفينيقيين الذين نزلوا علی السّاحل، أمام لبنان، كانوا أوّل شعب تمشی علی قاعدة محبّة الوطن. وبناء علی هذه الروحيّة، امتدح *سعادة* الحنين إلی الوطن وخصَّ الأرض بفضل مستقل فی «نشوء الأمم» مركّزاً فی أهميتها للحياة، وفی تأثيرها الفاعل حيث يقول: «فلا بشر حيث لا أرض، ولا جماعة حيث لابيئة، ولا تأريخ حيث لا جماعة.

إنَّ هذا التّوجة جعل التجارب الشعریّة «للمثلث التموزی» تتمحور حول الأرض وتعشق الأرض، وما یرمز إلیها من کلمات الوطن، والبلاد والأمّة والتّراب. ولم یقف الأمر لدی الشعراء والأدباء أتباع سعادة، علی التموزیین وحدهم، بل ألوف لایمکن حصرهم، وجمیعهم یرقصون علی إیقاع سمفونیات سعادة، فی مجال العناء الوطنی والقومی. قال *أدونیس* معبّراً عن هذا المناخ، فی قصیدته «أرض بلادی»:

أرضُ بلادی... کنتُ فی وَعیها
وکنت نجواها وأعماقها
أبدؤُها، أعیدُها فی دمی
وفی فمی
أرض بلادی قصّةٌ لم تزل
تقلبُ کفُّ الکون أوراقها
آفاقُها، تفتحُ آفاقَها

(أدونیس، ۱۹۸۸م:۸۹)

ثم کتب «قالت الأرض»، وهذا الدیوان، لیس ملحمة *سعادة* وحده بل ملحمة *سعادة* والأرض:

بی جوع إلی الجمال ومن صدریَ
کان الهوی، وکان الجمالُ
أنا سوّیتُ من عروقیَ أبنائی
وربّیتهم ذریً وجبالا

(أدونیس، قالت الأرض: ۲۱-۱۹)

وفی لمحة صوفیّة یتحوّل الشّاعر نفسه إلی أرض یعیر حاضراً فی کیانها کما حضرت فی کیانه:

هل أیقنَتْ عیناکْ
أنک أنتَ الأرض

فغنائیة الأرض من «لیلة» إلی «قالت الأرض» إلی *مهیار الدمشقی* وأغانیة کلّها متّصل بجذور سعادیة مع ما فیه من اختلاف:

كلّما افترَّ فی فلسطین لحنٌ
وردَّدته الأمواجُ فی أرواد

(أدونیس، قصیدة لیلة: ٢٥)

و فی قصیدته« المواکب»:

أمّتی هیّا بِنا
ملعبُ الشَّمس لنا
کم رَفَعنا عَلَماً
و بنینا أمَماً

(المصدر نفسه: ٨٩)

فلیس مفاجأة أن یستنتج أحدا لباحثین: «أنَّ فی «الحریّة»، قصائد ذات توجّه قومی، ونفساً مستمداً من روحیة تعالیم سعادة والحزب».

وأمّا فی ما یتعلق بالحاوی، فقال *إیلیا حاوی*: «أنّه أعاد الشّعر إلی ینبوعه الأوّل والأخیر، النفس والحیاة والوجود، والموت، والشعب، والخضب، وإنَّ عروق الأرض الغائرة هی التی مستمرٌّ أبداً»:

شهوة للشّمس، للعیث المعنی
للبذارِ الحیِّ، للغَلَّةِ فی قبوٍ ودنِّ
شَهوةٌ خضراءُ تأبی أنْ تبید

(الحاوی، الدیوان: ٩٤)

وهذه التّجربة حیّة فی «بعد الجلید»، حیث «رعشة الموت» وحیث عروق الأرض تموت، وحیث الغنائیة الراقیة التی تُصلّی کی تنقذ عروق الأرض حیث یقول:

رُدَّنی ربّی ألی أرضی
أعد لی للحیاة

(المصدر نفسه: ١٠٢)

ولمّا جذبته الغربة، وبعد أن کان صَرَخَ فی «بعد الجلید»:

یا حنین الأرض لا تقسُ علینا

أضاف وهو فی الغربة:

بی حنین لعبیر الأرضِ
للعصفور عند الصبح، للنَّبع المغنّی
لشباب وصبایا
من کنوز الشَّمس، من ثلج الجبالْ

(المصدر نفسه: ۱۰۳-۱۰۴)

ومع ذلک فلا علاقة العضویّة الصُّوفیة بالأرض کانت قدراً لا تفلّت منه فی تجربة حاوی، علی أساس موقف الزعیم *سعادة*، قال *حاوی*:

أحببت،لا
مازال حبّی وَقود
تحدقُها الرّؤیا بعینیَّ دُخانا
ما لها وجودْ
وسوف یأتی زَمَنٌ أحتضنُ
الأرضَ وأجلو صدرَها
وأمسح الحدود

(المصدر نفسه: ۱۶۹)

مات و هویغنّی الأرض الأمَ:
جولی سبایا الأرضِ
فی أرضی
وَصولی، واطْحَنی شعبی
اطْحَنی صُلبْی
لن یکتوی قلبی
قلبی الأصمُّ الأخرسُ الأعمی

(المصدر نفسه: ۶۰۳)

وفی سیاقٍ متصلٍ، قال *یوسف الخال*:

بلادی رفات الجدودْ

وحيث يحلّ الجودْ
وبذلُ الفِدا
نُفذٌ يكِ يوم الونى
و نبنيكِ فوق الدُّنى
منارَ هُدى

وله قصائد فى حقل الوطنّية، أبرزها، «هذه الأرض لى» و«الحرية»، «شعاع»، «الفجر الجديد» وغيرها. فكشف من خلالها صورة لبنان الثقافيّة والإنفتاح، ملجأ الأحرار، وفى التغنّى بنعمة الحريّة، مازجاً بروح *المسيح*، بفكر *سعادة*:

أنا حرٌّ يا ربِّ ما أنت حدٌّ
ما وجودى ترى إذا كنتَ عبَداً
شيمةُ الحرِّ أن يُروضَ أحراراً
ويأبى إلاّ التحرُّرَ مَبْدأ

نتيجةالبحث

إنَّ الكلام على أثر *سعادة* فى تيار الحداثة الشعرى يبقى دائماً بداية. فمن الصعب الاكتفاء ببضع صفحات لأضاءة هذا الموضوع وللكشف عن جذور الأعجوبة التى صنعها *سعادة*. كان *سعادة* محطّة متميّزة فى تأريخنا، وفى وجداننا، كانت دعوته إلى التجديد، من ضمن الروحية القومية.

إنَّ *حاوى*، *وأدونيس* و*الخال* قد استمدّوا جوهر تجارتهم، وطبيعة مواقفهم، وأنماط لغتهم، وآفاق رؤاهم، من فكر *سعادة*. فهو حدّد لهم الموضوعات، وخلق لهم المعجم اللغوى، ومنهم النفسَ الملحمىَّ وأوحى إليهم بمواقف من التُّراثيين الثقافيين الغربى والعربى. وهو الذى ألح على أهمية الفكر والفلسفة فى الشعر محارباً السطحية والعقم. وهو الذى نهض، فى مخيّلاتهم بالماضى الأسطورى، متمسكاً بالقومية. وهذا التّيار الذى تطوّر بسرعة، ضمَّ اسم سعادة إلى أسماء القوميين: العربيّة والسورية.

المصادر والمراجع

أبی فاضل، ربیعة. ۱۹۹۲م، **أنطون سعادة الناقد والأدیب المهجری**، بیروت: مکتب الدراسات العلمیة.
أدونیس. ۱۹۵۴م، **قصیدة قالت الأرض**، دمشق: المطبعة الهاشمیة.
أدونیس. ۱۹۵۰م، **قالت الأرض(مع مقدمة سعید تقی الدین)**، المطبعة الهاشمیة.
أدونیس. ۱۹۵۰م، **لیلة ملحمة قومیة**، دمشق: مطبعة ابن زیدون.
أدونیس. ۱۹۷۰م، **مقدمة للشعر العربی**، بیروت: دارالعودة.
أنطون، سعادة. ۱۹۹۳م، **الدلیل إلی العقیدة السوریة القومیة الاجتماعیة**، دار الرکن للطباعة والنشر.
حاوی، ایلیا. ۱۹۵۶م، **مع خلیل حاوی فی مسیرة حیاته وشعره**، بیروت: دار الثقافة.
الحاوی، خلیل. ۱۹۷۲م، **الدیوان**، بیروت: دارالعودة.
الخازن،ولیم. ۱۹۷۰م، **کتب وأدباء**، بیروت: منشورات المکتبة العصریة.
الخال، یوسف. ۱۹۷۳م، **الأعمال الشعریة الکاملة**، بیروت: التعاونیة اللبنانیة للتألیف والنشر.
خیرالله، شوقی. ۱۹۹۸، **مذاکرات**، الجزء الثانی، المرکز العلمی.
سعادة، أنطون. ۱۹۶۰م، **الآثار الکاملة(طریق الأدب)**، بیروت.
شریح، محمود. ۱۹۹۵م، **خلیل حاوی وأنطون سعادة**، بیروت.
فانوس، وجیه. ۱۹۱۸م. **الرمز الأسطوری وحاوی**، الفکر العربی المعاصر.
کرم، غطاس. ۱۹۸۰م، **ملامح الأدب العربی الحدیث**، بیروت.
موسی، منیف. ۱۹۷۷م، **قراءة فی فکر سعادة الأدبی وأثره فی بعض حرکة الشعر المعاصر**.
موسی، منیف. ۱۹۹۷م، **مجلة البناء«ملحق المجلة»**، العدد ۸۸.
نضار، ناصیف. ۱۹۷۵م، **طریق الاستقلال الفلسفی**، بیروت دار الطلیعة.
یموت، إبراهیم. ۱۹۹۸م، **الحصاد المرّ**، منشورات الرکن.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی